تأثير الفن الاسلامي في تزويق المخطوطات بالجنوب الايطالي في العصر الوسيط

خالد الأصرم

من المحقّق وأنّ الحضارة الفنيّة العربيّة قد بلغت مبلغا عظيما بصقلية[1] سيما عهد أمراء بني أبي الحسين الكلبيّين (337 ـ 486 / 948 ـ 1092)[2] ، وكان لهذه الحضارة عمق الأثر لا على صقليّة فحسب بل تسرّبت إلى البلاد الإيطالية وخصوصا جنوبها ، ولكن بسقوط صقليّة بيد النّرمان (أواسط القرن الخامس / XI) أتلف المقدار الأوفر من التّحف الفنيّة العربيّة بحيث لم يبق بين أيدينا ما يكفي لإدراك الشأو الذي بلغته هذه الحضارة الفنيّة ومعرفة أصولها التي ترتكز عليها .

ولكن لا مراء وأنّ صقليّة وجنوب إيطاليا بقيا متأثرين بهذا الفنّ العربي ينسجان على منواله ويحترمان أصوله وقواعده . ويمكن لنا اليوم تصوّر مدى هذا التأثير من خلال تحف فنيّة أنشئت على يد فنانين مسيحيين تعود إلى أواخر العهد الإسلامي والعهد النرّماني .

لا جرم كانت المخطوطات التي أنجزت في ما بين القرن الرّابع والسابع XIII-X بالجنوب الإيطالي[3] أروع المثل في اتّباع أثر الفنّ الإسلامي ، إذ نجد فيها مجموعة ذات بال من العينات المستوحاة منه ، وكان هذا الأثر الفنّي ذا وجهتين . فالوجهة الأولى تقوم على الأشكال المجرّدة والتّراكيب الزّخرفية الصّرفة ، وهي في الغالب متأتّية من تأثير مغربيّ ، أمّا الوجهة الثّانية فهي تقوم على فنّ ذي صبغة واقعيّة ينطوي على مشاهد للكائنات الحيّة والمناظر المستمدّة من الطبيعة ، وقد كان الأسلوب الزّخرفي المجرّد أسبق وجودا من رسوم الكائنات الحيّة إذ نجده في المخطوطات التي نسخت في أواخر العهد الاسلامي في حين أنّ رسم المنمنمات الذّي يمثّل المناظر الطبيعيّة لم ينشأ إلا في العهد النرماني أوائل القرن السّادس / XII .

والذي ساعد على نشأة واستمرار الطّريقة الواقعية بالجنوب الإيطالي عاملان اثنان :
أولهما هو أن مصر الفاطميّة ، منذ بداية القرن الخامس / XI ، قد عرفت نمطا جديدا للتصوير الواقعي نجده في منمنمات المخطوطات وعلى أواني الخزف والعاج ، وكان بين مصر وصقلية تبادلات ثقافية عريضة المدى ، بائنة الأثر في الأساليب الفنية المصرية التي انعكست على الفن بالجزيرة .

أما الحافز الثاني فهو قدوم فنانين من بيزنطة واختلاطهم بأهل الصناعات من الإيطاليين وكان لدى الايطاليين والبيزنطيين فن عريق مستمد من الأشكال الطبيعية وهو الفن « الكلاسيكي » اليوناني ـ الرّوماني نشأت عنه بالجنوب الإيطالي واقعية جديدة في فن التصوير .

ونكتفي بالإشارة إلى بعض من هذه المخطوطات التي أنجزت في الأديرة وفي البلاطات الملكية والتي يتجلى فيها الذوق الإسلامي ، وقد تعرض لها أ. جرابار في مقالة له نشرت سنة 1977[4] مبتدئين بالمخطوطات التي تحتوي على المنمنمات والمشاهد الحية ونختم بالمخطوطات الأقدم زمنا التي استنسخت في أواخر العهد الإسلامي .

أ ـ المخطوطات المنمنمة :

ازدهرت كتابة المخطوطات المنمنمة في عصر الملوك النرمان والجرمان[5] وكان هؤلاء الملوك ، لشدة شغفهم بدراسة العلوم الإسلامية قد تأثروا بطريقة العرب في صناعة الكاغذ وتجليد الكتب وتزويقها فساروا على ذلك الدّرب .

وأقدم وثيقة من ورق الكاغذ ترجع إلى العهد النرماني هي مرسوم من الملكة أدلاييد دي مونفراتو (Adelaïde de Montferrato) في حق ابنها رجار الثاني[6] ، صدر سنة 1109/503 باللغتين العربية واليونانية ، محفوظ الآن ببلدية بلرمو . وكما بيّن الفقيد الأستاذ عثمان الكعاك إذ قال : « إذا قابلنا هذا النص وهذا الكاغذ بكتاب شرح المفضّليات للخطيب التبريزي[7] الموجود بخطه بدار الكتب الوطنية بتونس والمؤرخ بسنة 1108 وجدنا الكاغذ يطابق في نوعه وحجمه والخط العربي يطابق خطوط ذلك العصر المعروفة بالمسلسلة »[8].فمن المحتمل أن تكون صناعة الكاغذ قد دخلت صقلية قبل هذا التاريخ (أي منتصف القرن الرابع / X) على يد العرب كما رجحه مكال أماري في كتابه « تاريخ مسلمي صقلية »[9] . وفحوى ما يقول أماري أن رجار الأول لما عزم على إعادة عقود الملكية للأراضي اتّخذ الكاغذ القطني لكتابة العقود والوثائق الجديدة . وبعد مرور قرن كامل صمم الإمبراطور فريدريك تعويض كل الوثائق من الكاغذ بوثائق من الورق ، ولكنه تمادى في استعمال الكاغذ في بعض وثائق مهمة نظرا لوفرة وجوده وعدم غلاء ثمنه وهذا يدفعنا إلى مشاطرة أماري في القول بأن الكاغذ كان صناعة محلية بصقلية احدثها العرب هنالك ولم يكن مستوردا من الأندلس أو من الشرق[10] .

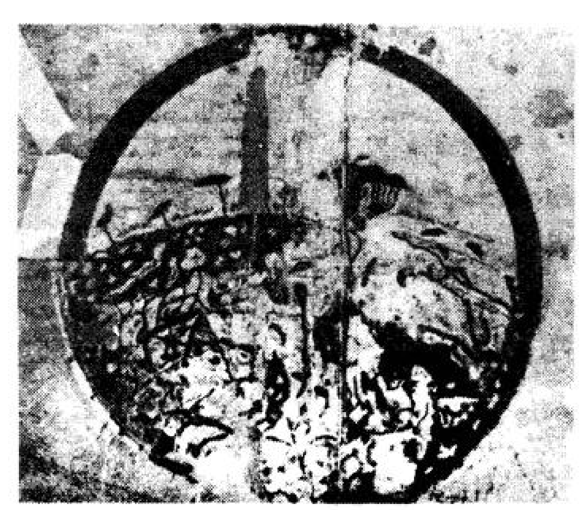
وبذلك يمكن أن نعتبر استعمال الكاغذ في المخطوطات بجنوب إيطاليا احدى مميزات التأثر بالصّناعة والفنّ العربي الإسلامي .

وأشهر المخطوطات لدينا كتاب في الجغرافيّة وضعه الشريف الإدريسي[11] سنة 1152/548 بإشارة من الملك رجار الثّاني سمّاه المؤلّف « كتاب رجار » أو « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق »[12] وصوّر فيه خارطات برسوم بيانيّة تقوم على الخطوط الرّقيقة والأشكال المبسّطة والنّقط الملوّنة والألوان المسطّحة الخالية من الظّلال ، وضبط فيه ما عاينه من البلدان والجبال والأنهار والبحار ، وكتب على هذه الرسوم أسماء المناطق والمحيطات بالحبر الأسود والأحمر (اللّوحتان 1 ـ 2) .

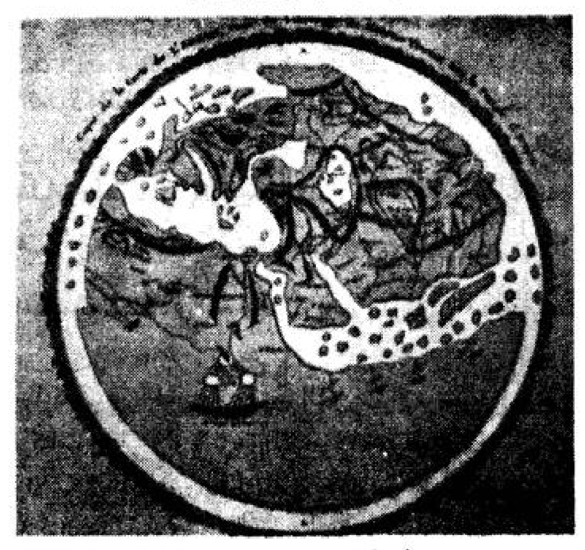
وقد جاءت هذه التصاوير التّوضيحية وفقا للتصاوير التي نجدها في سائر مخطوطات العلوم التطبيقية مثل مخطوطة « الكواكب الثابتة » لعبد الرحمان الصوفي (القرن الرابع / XI)[13] . فإن كاتبها (وهو ابن المؤلف نقلها عن نسخة بخط أبيه) رسم صور البروج وأماكن النجوم بخطوط دقيقة ومتقنة تأكيدا على الأشكال الأساسية للمجموعة الفلكية .

ولم يبلغنا اليوم إلا قليل من كثير من المخطوطات اليونانية واللاتينية التي نقلت بطريق الترجمة من اللغة العربية والتي أنجزت في عهد الملوك النرمان وخاصة في دولة الإمبراطور الجرماني فريدريك[14] .

ولعل البعض من المخطوطات الموضحة بتصاوير والتي يعتقد أنها ضاعت وأتلفت مازال مطمورا في المكتبات الخاصة والوطنية ولم يكتشف بعد ، وما تبقى منها كاف لإدلائنا بأمثلة فنية إسلامية استروح منها المزوقون بالجنوب



1 ـ خريطة أرضية للإدريسي ، وقد جعل الشمال من فوق كما هو الحال عند علماء الجغرافية اليوم ، الرّسم مأخوذ من مخطوطة عربيّة محفوظة بالمكتبة الوطنيّة بباريس .



2 ـ نسخة من خريطة أرضيّة للإدريسي نقلت بفرنسا في القرن 13 / XIX

الإيطالي وهو كاف لإعطائنا انطباعا حيا عن التأثير الذي احدثه الفن العربي الإسلامي هنالك .

ولقد صمّمت هذه المخطوطات على أيدي نسّاخين إيطاليين كانوا يتعاطون الكتابة والتزويق ويعملون تحت إشراف ملوك بلرمو . ونجد من بينهم نسّاخين بيزنطيين استوطنوا البلاد الإيطالية وحذوا حذوهم في محاكاة التزويق الإسلامي .

فقد جلب الملوك النرمان إلى إيطاليا في غزواتهم عبر الإمبراطورية البيزنطية أصحاب الصنائع ورجال الفن اليونانيين الذين أسّروا في الحرب ، فجاءوا بهم من أثينا وكورنتوس وتيبة وخصّصوا لهم دورا يباشرون فيها حرفهم ، وكانوا يعملون جانب جمع من حذاق الصنائع المسلمين الذين بقوا في صقلية تحت حكم النصارى ، مما جعل كثيرا من المنتوجات الفنية تتميز في تلك الفترة بالطابع الاسلامي والبيزنطي في آن واحد وكذلك الطابع اللاتيني المتأصّل في البلاد .

ولعلّ هؤلاء الفنانين البيزنطيين الذين سكنوا إيطاليا قد كان لهم نصيب في المساهمة في رواج الفن الإسلامي والإقبال على محاكاته .

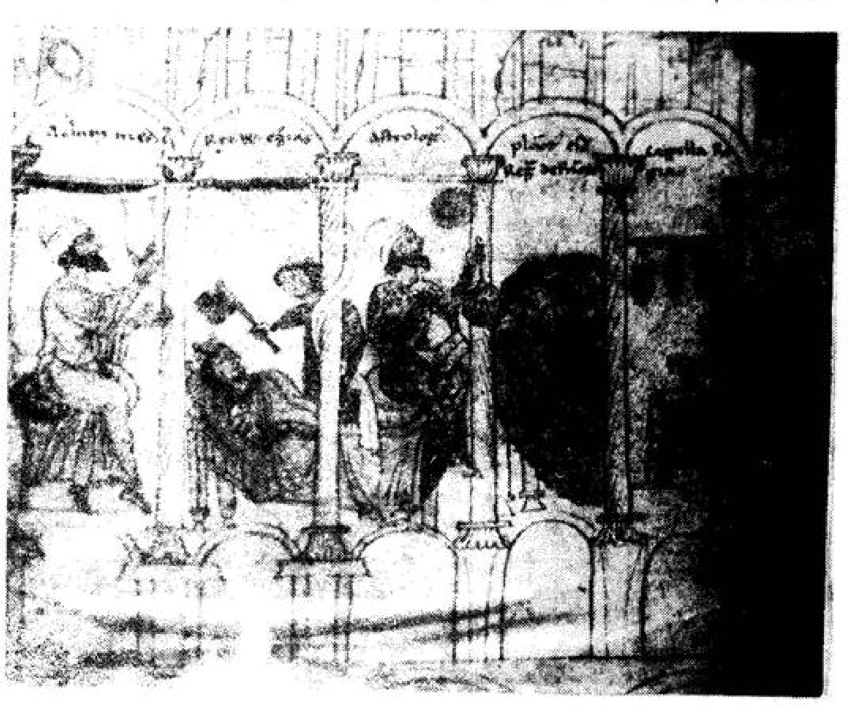
فلئن تبنّت الحضارة الإسلامية منذ بدايتها الأصول الفنية البيزنطية واستوحت أساليب قديمة لحضارات متنوعة فقد تطورت هذه الأساليب وتبلورت وسط مناخ عربي إسلامي ونشأ عنها فن جديد ذو صبغة خاصة وصفات مميزة كان من الحيوية والنضج بحيث أثر بدوره في فنون الحضارة المجاورة مثل الإيرانية والبيزنطية . ونأخذ من بين الأمثلة من الفن البيزنطي المقتبسة من الرسوم الإسلامية رخامة « الفسقيّة المقدّسة » الشهيرة (القرن الرابع / XI) المحفوظة بمتحف أثينا والمنحوت عليها صورة لشجرة الحياة على جانبيها أسدان متقابلان والصورة محاطة بزخارف نباتية على الطراز العربي وأشكال مستوحات من الخط الكوفي .

وقد هاجرت أفواج من الصناع الإغريق فرّوا من بلادهم واحتموا ببلاط وليم الثاني[15] فتقبلهم هذا الملك قبولا حسنا واستقر هؤلاء اللاجئون يمارسون صنائعهم ، ممّا أدى الى تشعب الأساليب الفنية . وهكذا امتزج الفن الإسلامي بالفن البيزنطي واللاتيني وتمخض ذلك عن لقاح تيارات حضارية مختلفة سادت الجنوب الإيطالي عدة قرون[16] .

ـ المخطوطات اللاتينيّة :

تشتمل معظم المخطوطات اللاتينيّة على [illegible] تمجيد أوغسط « («Liber ad Honorem Augusti»)[17] وهو مجموعة قصائد [illegible] (Pietro [illegible]) في مخطوطة نسخت حوالي سنة 1200/597 (من ممتلكات المكتبة البلديّة ببارن [illegible] (cod Bern 120) .

وفي هذه المخطوطة الملكيّة نكتشف منمنمات لمشاهد بلاطية مثل مشهد وليم الثاني في قصره وهو يداوى من طرف طبيب ومنجم عربيين[18] (اللوحة 3) . وقد جاءت رسوم هذا المشهد [illegible] على غرار إنجيل الملك منفراد[19] (مكتبة



3 ـ طبيب ومنجّم عربيّان يعالجان الملك وليم الثاني وهو بقصره ـ بياترو دا أبلي ، قصائد مدح ، بارن ، المكتبة البلديّة .

الفاتيكان ، (lat. 36) في قالب أسلوب تخطيطي نجده أيضا في مخطوطة « الكواكب الثابتة » التي ذكرت قبل ، وهذا الأسلوب القائم على الخطوط البسيطة المجردة من الأظلال هو الأسلوب الفارسي ـ العراقي الذي كان سائدا في العصر العبّاسي في كامل أنحاء بلاد الإسلام والذي انطوت عليه الرّسوم الجدارية بسامرا (القرن الثالث/ IX) ورسوم سقف الكابلة البلاطية ببلرمو (القرن السادس /XII) [20]

وهناك مخطوطة توجد بمكتبة الفاتيكان بروما (تحت رقم lat.1071) تبحث في فنّ البيزرة (« كتاب صنعة القنص بواسطة الجوارح » («De arte venandi cum avibus») نقلها موسى البلرمي وتيودور الأنطاكي إلى اللاّتينيّة من نسخة عربيّة لكتاب البيطرة المنسوب لبقراط[21] . وقد أشرف فريدريك الثّاني [22] بنفسه على مراجعة هذا العمل ودعا لتنقيح النّصوص وتحقيقها رجالا ماهرين في صنعة البيزرة (من بلاد العرب ومن أماكن أخرى «tam Arabia quam de régionibus undecumque») .

وقد ضاعت النّسخة الأصليّة التي استنسخها فريدريك سنة 684/1284 ، وكان الملك منفراد ابن الإمبراطور فريدريك قد أمر النّاسخين باستنساخ الكتاب المذكور خوفا من أن يتلاشى ، وهذه النّسخة الثانية هي الموجودة في مكتبة الفاتيكان . وهناك نسخة أخرى مع ترجمة فرنسيّة لها محفوظة في مكتبة المليّة في باريس .

وتتضمّن نسخة الفاتيكان تفصيلات عن تفرعات تربية الجوارح وتهذيبها ووصفا دقيقا لألوانها وأشكالها ، وكثير مما ذكر في هذه النسخة يوافق ملاحظات المؤلفين العرب للبزاة وسائر الجوارح إلا أنّها لم تكرر الغلط المشهور بأنّه لا يوجد من البازي إلاّ الاناث ولكنها أثبتت أن الجارح الضخم الجثة الماهر في الصيد يكون من الإناث[23] .

نشاهد في هذه النّسخة من بين مناظر القنص الكثيرة ، مثل صيد البطّ بواسطة الإختباء تحت الماء (اللوحة 4) ، صورا أخرى توضّح لنا كيفيّة تربية الجوارح (اللوحة 5) وطريقة ذبح الطّيور المصطادة (اللّوحة 6) وطبخ بيضها (اللّوحة 7) .



4 ـ اصطياد البطط بالاختباء تحت الماء ـ كتاب صنعة القنص بواسطة الجوارح ، روما ، مكتبة الفاتيكان



5 - تربية الباز ، كتاب صنعة القنص . الفاتيكان



6 - ذبح الطيور المقنوصة ، كتاب صنعة القنص ، الفاتيكان



[illegible] صنعة القنص ، الفاتيكان

والذي يلفت الإنتباه هنا هو [illegible] الواحدة نفس الصوّرة للحيوان أو الإنسان ، وهذه الطّريقة في الرّسم التّي ترتكز على [illegible] والمكرّرة هي من خصائص الفنّ الإسلامي الذّي نجد فيه دوما إعادة العناصر الزخرفية [illegible] في هذه المخطوطة ، كطيور الإوز مثلا (اللّوحتان 8 ـ 9) تماثل في تراصفها وتشابهها رسوم الحيوانات والطيور في سائر المخطوطات العربيّة لاسيما في نسخ « كليلة



8 ـ صفحة من كتاب صنعة القنص [illegible]



9 ـ صفحة من كتاب صنعة القنص ، محفوظة بمكتبة المليّة بباريس

ودمنة » المزوّقة ، حيث نلاحظ في إحدى هذه النّسخ وفي نمنامة « مجلس الغربان » (اللّوحة 10) عددا من طيور الغربان متماثلة ومصطفة أمام ملكها . وفي نمنامة توجد في نسخة أخرى من « كليلة ودمنة » ، تسمّى « صورة البوم محترق في النّار والطّيور طائرة » (اللّوحة 11) نشاهد أربعة من الغربان فاتحة أجنحتها متشابهة في الأشكال والألوان والحركات .



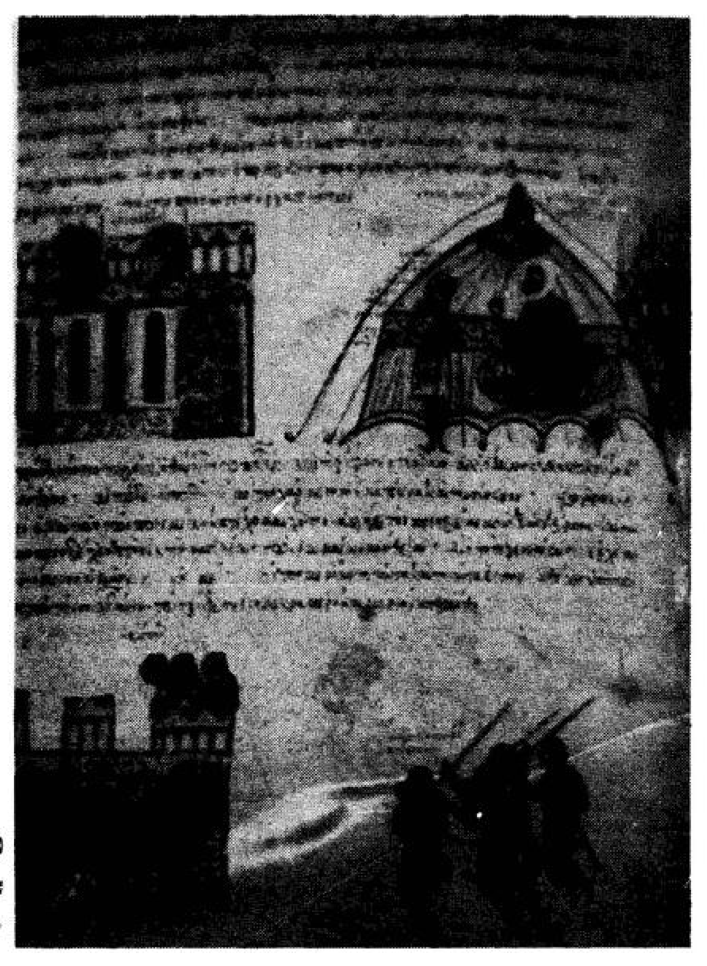
10 ـ الوجه الثاني من الورقة 95 من « كليلة ودمنة » ، نسخت على أكثر احتمال بسوريا بين سنة 597 و 618 / 1200 ـ 1220 ، موجودة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم (Ms Arabe 3465) .

ـ المخطوطات الإغريقية :

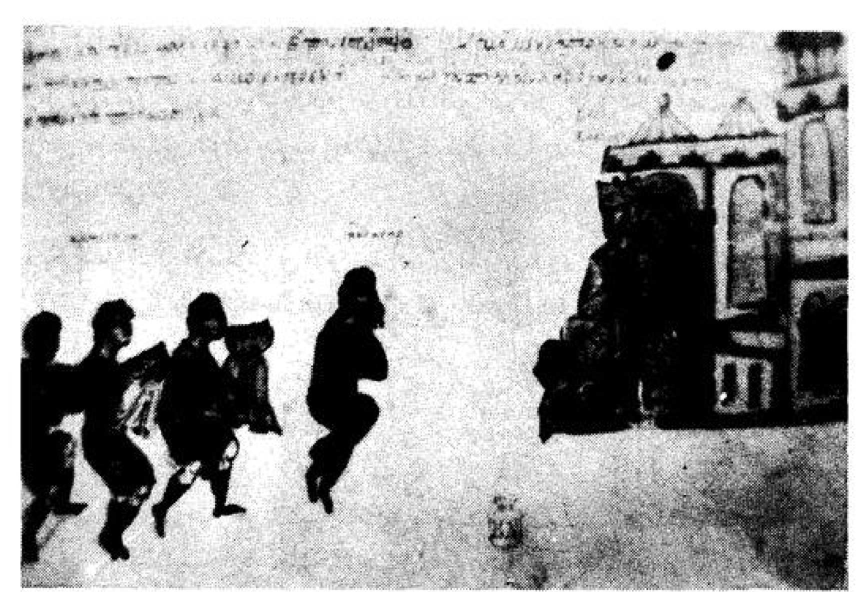
أشهر المخطوطات الإغريقية نسخة للمؤرخ البيزنطي جان سكيلتزاس (Jean SKylitzes) تحدّث فيها عن مقاومة الامبراطورية البيزنطية للعرب الفاتحين (من القرن الأول الى القرن الثالث / IX — XI) ، وفي ما قص فيها أحوال العرب بإيطاليا ، وهي من ممتلكات المكتبة الوطنية بمدريد (cod. Vitrine 26,2) تجمع أربعة وسبعين وخمسمائة منمنمة[24] .

والذي يلفت النظر هو أن السبعة والثمانين منمنمة الأولى في ترتيب المخطوطة تكشف عن الطابع البيزنطي ، إذ أن المنمّق قد يكون استوحى أشكاله من مخطوطات معاصرة لسكيلتزاس (أواخر القرن الخامس / XI) ، ولكن البقية الباقية من المجموعة التي رسمت على يد فنان آخر وقع فيها الدمج بمهارة بين أساليب بيزنطية ولاتينية ونماذج إسلامية (وهذا يعطينا فكرة جلية عما كانت عليه الحضارة المتشعبة الجذور التي سادت البلاط الملكي في بلرمو) .

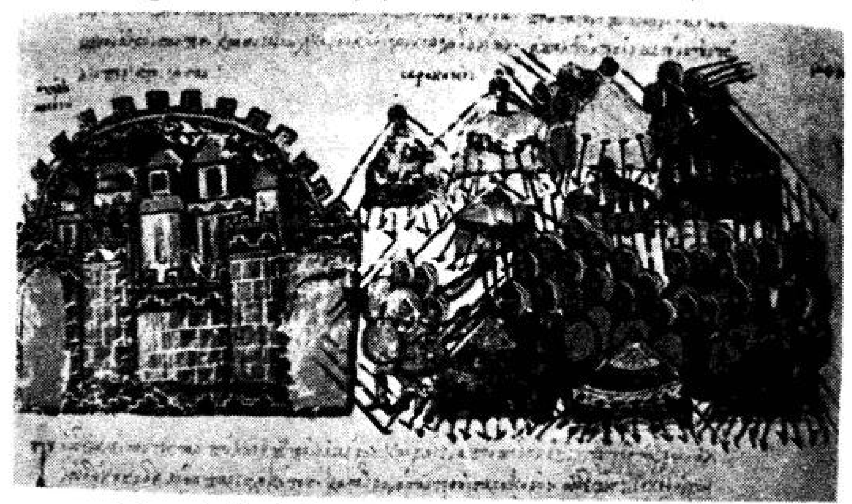
فالعناصر الزخرفية المستوحات من الفن العربي الإسلامي التي نجدها في منمنمات نسخة سكيلتزاس كانت على نوعين : رسوم معمارية وخاصة منها المدن المحصنة ، ورسوم لأشخاص ذوي مظهر إسلامي يلبسون العمائم ويجلسون على السجاد ، تحيط بهم خيام وأمتعة عربية (اللّوحات 12 ـ 15) . وقد استعمل الرسام أمثلة عديدة ومتنوعة للعنصر الواحد ، فمن المحتمل ان يكون قد اعتمد على رسوم مخطوطات عربية نقل منها لتزويق نسخته .



12 ـ حصار كابو (Capoue) وبينفونتو ، بإيطاليا (من فوق) واستجواب أسير الحرب من طرف الأمير وإعدام سفير كابو (من أسفل) الورقة 97 من تاريخ سكيلتزاس ـ مدريد المكتبة الوطنية .



13 ـ القائد البيزنطي نازار عند انتصاره على الجيوش العربية بعرض بحر ليباري (Lipari) وخليج نابلي (266 / 879) يعود الى القسطنطينية ويسلّم إلى الامبراطور باسيليوس الأوّل الغنائم التي سلبها من أعدائه ، تاريخ سكيلتزاس ، مدريد .



14 ـ الجيش العربي يحاصر مسينة (Messina) بايطاليا ، تاريخ سكيلتزاس ، مدريد .



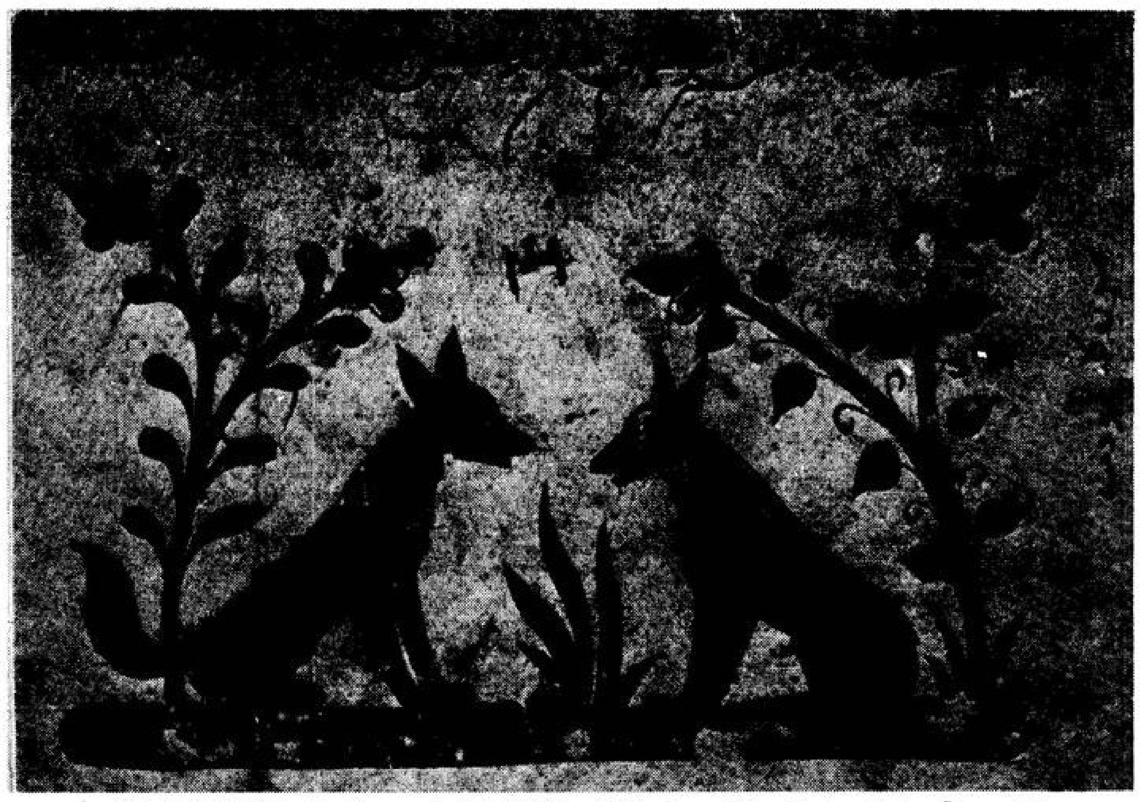
15 ـ اخفاق محاولة العرب للإستيلاء على أورفا (Edesse) (بتركيا الحالية) من أيدي البيزنطيّين الذين كانوا قد احتلوها من سنة 423 / 1031 ، ولم تسقط هذه البلاد من طرف العرب إلاّ في سنة 539 / 1144 ، تاريخ سكيلتزاس ، مدريد .

لقد حقق الأخصائيون أن هذه المخطوطة الضخمة ترجع إلى أواخر القرن السابع / XIII ، أي في الوقت الذي بدأ فيه الفن الاسلامي يفقد من أهميته لدى الإيطاليين ، وكذا الفن البيزنطي الذي تطور ليصبح فنا إيطاليا بحتا . ولكن مخطوطة سكيلتزاس جاءت لتبيّن لنا أن جنوب إيطاليا مازال متأثرا قبيل عصر النهضة وفي عهد مازاتشيو وجيوتو بكلا الفنين الإسلامي والبيزنطي .

وفي الواقع لم يكن هذا التأثر الإسلامي في الأواسط الفنيّة واسع النّطاق ، وكان عدد المطّلعين على المخطوطات من قراء وفنّانين ، لاسيما المكتوبة باليونانيّةجدّ محدودا ، إذ بقي محصورا عند بعض الخواصّ من الذّين يخالطون البلاط الملكي بنابلي أو بلرمو .

وهناك مخطوطة في مكتب ب. مرجان (P. Mongan) بنيويورك (Ms. 397) ساعد على ترجمتها من العربيّة إلى اليونانيّة أوجين البلرمي (الملقّب بالأمير) تشتمل على نصوص لخرافات بيدبا وبعض من أمثال إزوب اليوناني مصحوبة بتصاوير تمثّل عالم الحيوان (من أسود وبنات آوى وعصافير) ، وتبدو هذه التّصاوير على نحو نسخ « كليلة ودمنة » العربيّة مرتّبة بطريقة بسيطة وذات أشكال مسطّحة ، محاطة بخطوط سوداء وخالية من الأبعاد .

ويمكن لنا مقارنة منمامة « بنتي آوى كليلة ودمنة » (من مخطوطة بباريس) (اللّوحة 16) بالنّمنامة التّي لدينا في نسخة مرجان (اللّوحة 17) ، فإنّ الصّورتين كلتيهما تقومان على نظام تعدّد الشكل الواحد . وأغرب من ذلك فإنّ أشكال الحيوانات بنسخة مرجان تطابق بكلّ دقّة الأشكال الموجودة بنسخ « كليلة ودمنة » وكل هذه الأشكال مبنية على التناظر والتقابل وقائمة على تركيب تصويري نجده رائجا في الفن العربي الإسلامي وهذا التركيب يتألف أساسا من محور يكون أحيانا خياليا وغالبا في شكل شجرة الحياة وعلى جانبي المحور أسدان أو طاووسان متقابلان أو بنتا آوى كما نشاهد في الصورتين[24] .



16 ـ « بنتا آوى كليلة ودمنة » الوجه الثاني من الورقة 41 ، المكتبة الوطنية بباريس ، تحت رقم (Ms Arabe 3467)



17 ـ « خرفات بيدبا » ، مخطوطة 397 بمكتبة ب. مرجان ، نيويورك .

وهناك منمنمة أخرى بنسخة مرجان (اللّوحة 18) تذكرنا بصفة مباشرة بمنمنمة « مجلس الغربان » (التي سبق ذكرها) . وهنا أيضا نجد تطابقا في أشكال كلتا الصورتين وتراكيب تقوم على المقابلة والمناظرة .



18 ـ « خرافات بيدبا » ، مخطوطة 397 بمكتبة ب. مرجان ، نيويورك .

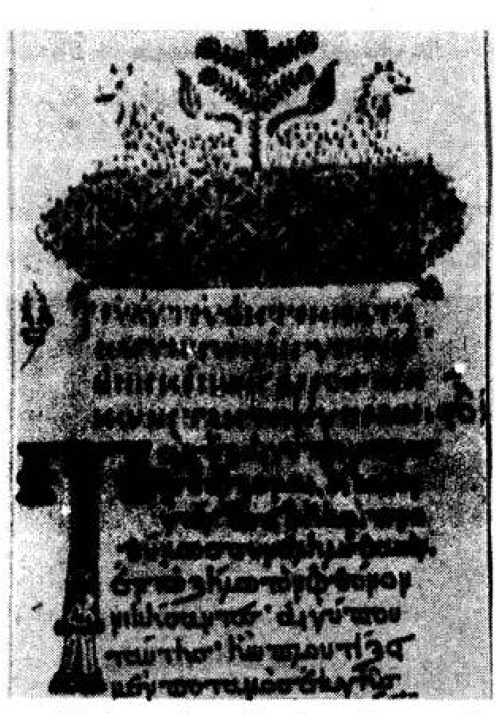
ب ـ المخطوطات المرقّشة :

لدينا جمع آخر من المخطوطات محلات برقوش عربيّة وتشكيلات هندسية تختلف عن رسوم الكائنات الحية والمشاهد الطبيعية التي اطلعنا عليها وهذه الرقوش والتشكيلات هي نقل لاتيني ـ بيزنطي واضح لزخارف المصاحف القرآنية التي نمقت في القرنين الرابع والخامس / XI, X [26] . ويقول أتنغهاورن أن هذه الأشكال المجردة التي تجمل صفحات المصاحف كانت « أكثر تأثيرا في الغرب من الرسوم ذات الأرواح ، ذلك لأن أشكال التصاميم في الكتب الغربية قد

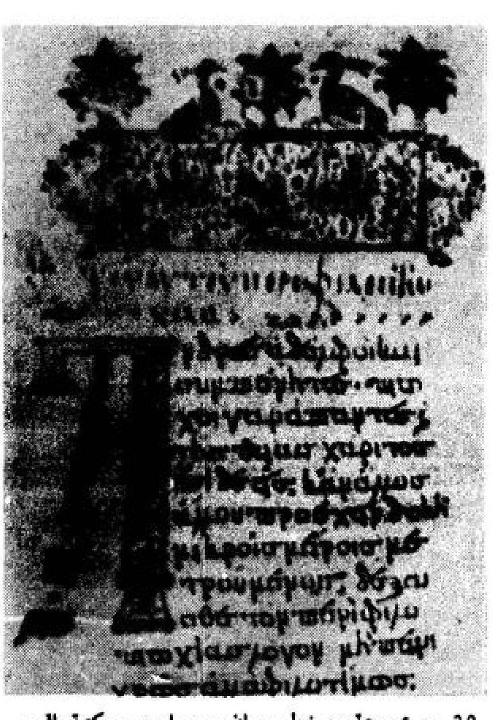
استفادت من التصاميم المغربية »[21]. وهذه الأشكال الزخرفية الصرفة هي التي ميّزت الفن الإسلامي وأعطته طابعا خاصا وكانت لها تأثيرات عميقة في فنون الغرب التي اقتبست اقتباسات واسعة المجال من الأساليب العربيّة في التّوريق (أي الزّخرفة النّباتيّة) وفي التراكيب الهندسيّة[22] .

ونذكر على سبيل المثال ثلاث نسخ كتبت بالجنوب الايطالي في العهد الاسلامي تحتوي على تراكيب زخرفيّة صرفة ، لم تعهد من قبل في الكتب البيزنطيّة القديمة ، إذ كانت بيزنطة تعرف أنواعا محدودة من التّشكيلات الهندسيّة .

فالأولى مخطوطة شهيرة نسخت عام 330/941 بدير إفريقيّ في ريجيو دي كلابرا على مقربة من صقلّية (مكتبة باتموس (Patmos) Grec 33 لسان جرجوار[23] نجد فيها العناوين ومطالع الصحف محلات بأطر تحوي في داخلها أشكالا هندسيّة متشابكة وقد شغلت الأجزاء العليا لهذه الأطر بنباتات وحيوانات متناظرة (مثل الطّواويس والأسود والظّباء) ذات طبيعة زخرفية غالبة ، خاضعة للأساليب الإسلاميّة وخاصّة الإيرانيّة منها إذ أنّها تذكرنا برسوم المنسوجات السّاسانيّة (اللّوحتان 19 ـ 20) .



19 ـ « مجموعة من خطب سان جرجوار » ، مكتبة باتموس



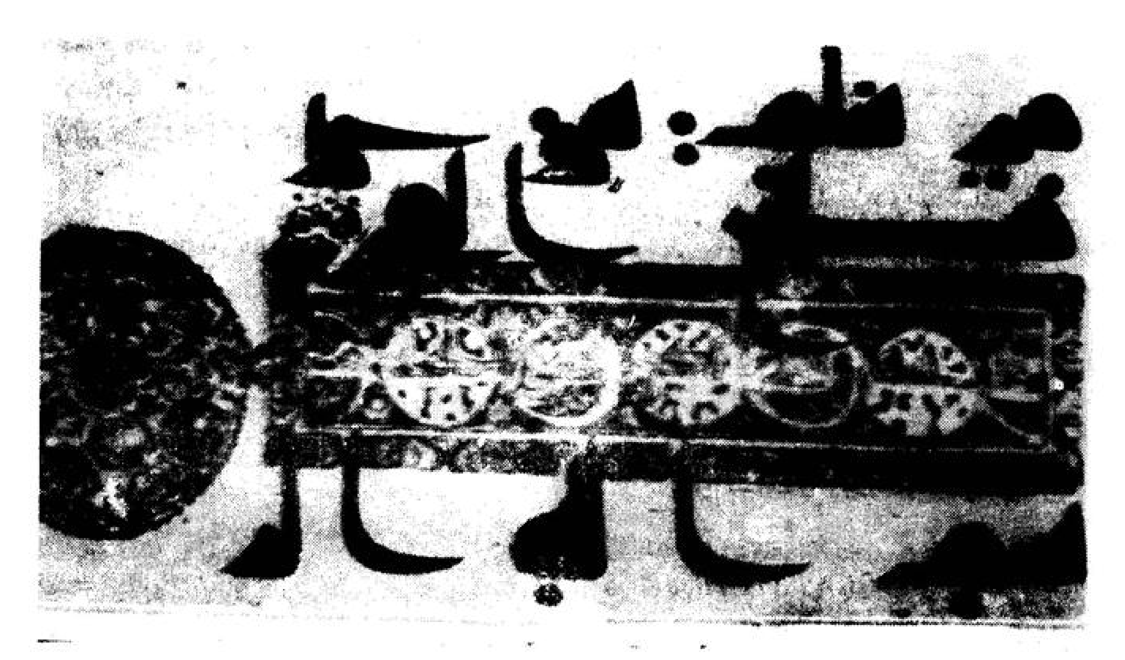
20 ـ « مجموعة من خطب سان جرجوار » ، مكتبة باتموس

والثانية مخطوطة بمكتبة الفاتيكان (Chisien grec R. IV. 18) مؤلفها سان جان داماسان (S' Jean Damascène) . وأغلب الظنّ أن تاريخها يرجع إلى ما قبل سنة 1030/422 . ويتألف زخرف الورقة 48 (اللّوحة 21) من إطار مستطيل ، على جانبه الأيمن دائرة تشبه الشّمسة التّي في المصاحف (اللّوحة 22) ، وهذا الزخرف قد نمق بالذّهب وهي طريقة في التّزيين مألوفة عند المسلمين ولم تعهد عند الفنانين البيزنطيّين .

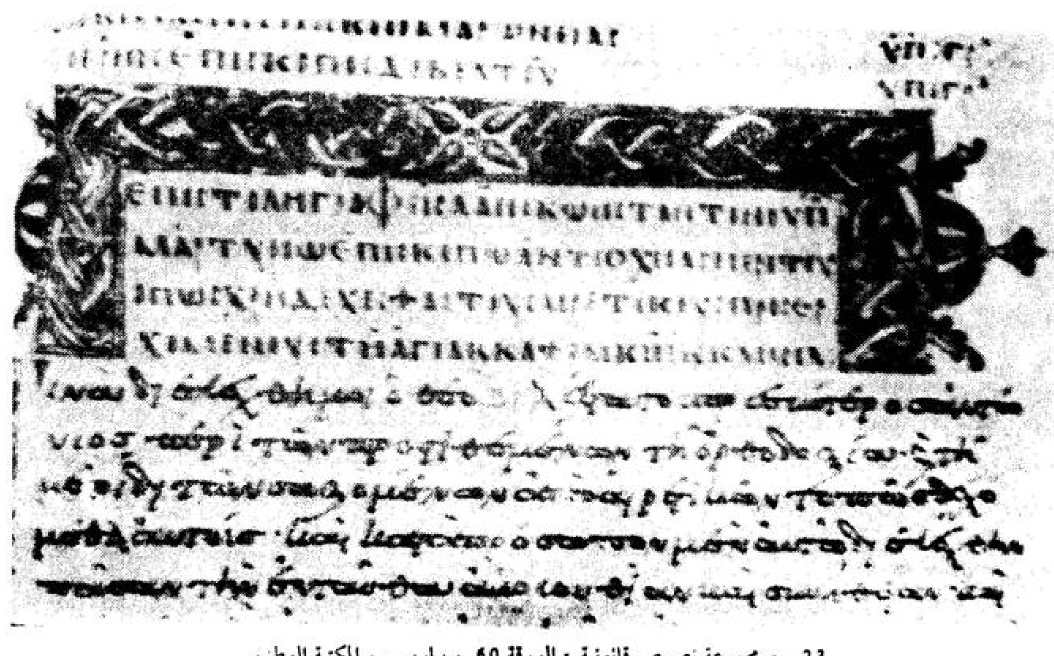
أمّا الثالثة فهي مخطوطة ترجع إلى القرن الثّالث أو الرّابع X.IX محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس (Suppl. grec 1085) تتضمّن مجموعة من نصوص قانونيّة . فكثير من الزخارف في مطالع الصحف لا تنحصر هنا داخل شكل هندسي دقيق فحسب بل تحمل على الجوانب زيادات تتمثل في رسوم تيجان (اللّوحة 23) ، وهذه الطريقة في الزّخرفة مشتقّة من العيّنات الإسلاميّة التي أصبحت مستعملة عند البيزنطيّين ، كما بيّنه أ. جرابار في مقالته التّي ذكرت .



21 ـ مخطوطة من كتاب لسان جان داماسان بمكتبة الفاتيكان ، جزء من الورقة 48



22 ـ جزء من صف ... مصحف نسخ في القرن الثالث / IX



23 ـ « مجموعة نصوص قانونية » الورقة 60 ، بباريس ، المكتبة الوطنية

لا شك وأن هذه المجموعة من العينات المنتقات من الفن الإسلامي تدل دلالة واضحة على مدى تأثر الفنانين الإيطاليين بهذا الفن لاسيما في تزويق المخطوطات التي انجزت في العصر الوسيط ، ولكن تجدر الإشارة إلى أن هذه المخطوطات كانت متباينة في اتجاهاتها ومضامينها إذ أنها كانت مكتوبة باللاتينية والبونانية وتدور حول مواضيع شتى متعلقة بعضها بالدّيانة المسيحيّة والبعض الآخر بالعلوم والآداب ، وزيادة على ذلك فهي تعود إلى قرون متباعدة (من القرن الرّابع الى السّابع / XIII-X) . فلو نظرنا لكل مخطوطة على حدة ما استطعنا أن نجزم بتأثير الفن العربي الإسلامي طيلة هذه القرون . فمن المجدي أن نقتفي الأثر الإسلامي لا في مجرّد المخطوطات وتمنماتها بل نحوّل نظرنا إلى تحف فنّية أخرى مثل الزّخارف المعماريّة والنّقوش الخشبيّة والرّسوم على الأواني المعدنيّة والمنسوجات . فمن مجموع ذلك نصل إلى نتيجة التّأثير الذي تركه الفنّ الإسلامي بجنوب إيطاليا ، إذ أنّ وجود نفس النّماذج الفنيّة الإسلاميّة في هذه التّحف المختلفة الأجناس يدل على المنبع الذي كان يكرع منه الفنّانون بجانب الفنّ الإيطالي والبيزنطي .

فدراسة التّأثيرات الإسلاميّة تصبح لزوميّة لدارس فنون الجنوب الإيطالي في حقبة معيّنة كما تهمّ مباشرة تاريخ الفنّ الإسلامي وإشعاعه على الفنون الأخرى ، إذ تعطي للدّارس نظرة تقريبيّة عن المهيع المخصب الذي كان موجودًا آنذاك بجنوب البلاد الإيطاليّة وتلاشى على يد النّرمان الغزاة .

---

(1) بموجب أنها كانت ملتقى حضارتين عربيّتين ، الشرقيّة (الشام ومصر) والمغربيّة (الأندلس والمغرب الأوسط وإفريقيّة) ، زد على ذلك أن هذا العصر كان يعرف بالعصر الذهبي العلمي والفني والمعماري .

(2) التّاريخ معيّن أوّلا بالتّقويم الهجري ثم بالتقويم الميلادي ، والوفاق هنا بين الأعوام الهجريّة والميلادية تقريبي وليس بالقطعي .

(3) يتكوّن الجنوب الإيطالي من جزيرة صقلية وجنوب شبه جزيرة إيطاليا ويطلق عليهما العرب إسم الصقليتين .
وكان النفوذ السياسي للعرب عند حلولهم بصقلية لا يتعدى حدود هذه الجزيرة بيد أن حضارتهم وتراثهم الفنّي شمّا على نطاق أوسع وتغلغلا في عدّة مناطق من إيطاليا ، وقد وطىء العرب البلاد الإيطالية وأقاموا في بعض ربوعها غير ان وجودهم فيها لم يكن دائم الإستقرار .
وعند الغزو النّرماني انضمّت صقلية للجنوب الايطالي فأصبحا إقليما واحدا يخضع لسيطرة الملوك النرمان ونفوذهم الفكري والسّياسي .
أنظر
Ventura (A) : Les Arabes de la Sicile à la Provence, in «Histoire et civilisation de l'Islam en Europe , Arabes et Turcs en Occident du VIIe au XXe Siècle.»
Bordas, Paris, 1983. pp 102 — 105.

(4) أنظر
Grabar (A) : Reflets de l'art islamique sur les peintures et les reliefs médiévaux en Italie méridionale (X-XIIIe siècles), in « Studies in Memory of Gaston Wiet », Institute of Asian and African Studies, The Hebrew University of Jerusalem, 1977, pp.161-169.

(جل الصور التي تصحب النص اقتنيناها من هذه المقالة التي نجد فيها مراجع مفيدة) .

(5) نزل النرمان من بلاد النرويج والدّنمرك في القرن الثالث / IX على أوربا الوسطى وشمال فرنسا (نرمنديا) ثم استولوا على جنوب ايطاليا وصقلية حيث تقلد منهم السلطة ملوك من عائلة هوتفيل (Hauteville) ولكن ملك النرمان انتقل بواسطة المصاهرة إلى أباطرة جرمانيا من عائلة ههونستوفن (Hohenstanfen) عندما أصبح هنري الأول سنة 591/1194 ملكا على صقلية وتولّى من بعده الإمبراطور فريدريك الثاني .

(6) ملك صقلية (525 ـ 551 / 1130 ـ 1154) وهو ابن رجار الأول (ملاحظة : نذكر عند أسماء الملوك الواردة تاريخ توليتهم عوض تاريخ ولادتهم) .

(7) يحيى أبو علي التبريزي المعروف بالخطيب (421 ـ 502 / 1030 ـ 1109) من علماء فقه اللغة ، أراد تحقيق « التهذيب » للأزهري فجعل مجلداته في مخلات وسافر من تبريز الى المعرة طالبا شرحها من أبي العلاء ، صنف في الآداب كتبا عدة وشرح دواوين كثيرة منها كتابه « شرح اختيارات المفضل بن محمد الضبي » وهي أكبر مجموعة من الأشعار جمعها المفضل الضبي (نحوي وشاعر من الكوفة توفي سنة 164 / 780) . وهذه النسخة التي لدينا بخط المؤلف كتبها سنة 486 / 1108 وهي محفوظة بالمكتبة الوطنية بتونس تحت رقم (مخطوطات شرقية 531) (حجم الورق 18×20،5)

(8) عثمان الكعاك : « الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط » ، محاضرات ألقيت على طلبة معهد الدراسات العالية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ألمانيا ، 1960 ، ص 88 .

(9) أنظر :
Amari (M) : «Storia dei Musulmani di Sicilia», seconde edizione, publicata con mote a cura Carlo Alfonso Nallino, Romeo prampolini —editore, Catania, 1933-1939. (volume tezo, parteterza, Capitolo XII (Se la Sicilia abbia avunte manifatture di carta) pp. 827-830.

(10) وكانت صقلية من قبل تنتج ورق البردي فعوضه العرب بكاغد القطن . ولكن الكلمة اليونانية الأصل التي تطلق على البردي (popuros) أصبحت على عهد فريدريك تطلق أيضا على الكاغذ القطني ولم تصبح هذه الكلمة رائجة الاستعمال في اللغة اللاتينية (papyrus) وعند الأورباويين إلاّ في منتصف القرن العاشر / XVI وكان المراد بها الورق بصفة عامة .

(11) محمد الإدريسي الحسني الطالبي (سبتة 493 ـ سبتة ؟ 560 / 1100 ـ 1165) درس في قرطبة وبرع في الشعر والهيئة والجغرافية والطب وقد رسم البلدان والقارات على كرة فضية (تزن 8، 195 كلغ) وألف لغليام الأول (551 ـ 562 / 1164 ـ 166) مصنفات جغرافية وكتابا في الصيدلة سرد فيه أسماء العقاقير والادوية باثنتي عشر لغة . (وقد استفاد ابن البيطار الأندلسي عالم الأعشاب من كتابه « الجامع لصفات أشتات النبات ») .

(12) وقد نشر مختصر كتابه مع ترجمة لاتينية في روما سنة 920 / 1512 .

(13) توجد هذه المخطوطة في مكتبة بدليان (Bodleian Library) بأكسفورد تحت رقم (Marsh 144) أنظر ريتشار اتنغهاوزن : « فن التصوير عند العرب » ترجمة وتعليق الدكتور عيسى سلمان وطه التكريتي ، مطبعة الاديب البغدادية ، 1974 ، ص 50 ـ 53 (كتاب الصوفي عن النجوم الثابتة)

(14) إن اهتمام الملوك النرمان والجرمان بالعلوم والآداب كان جريا لعادة سنها الملوك المسلمون (ولنأخذ على سبيل المثال اقبال السلطان البويهي عضد الدولة على العلوم الفلكية اذ عهد الى عبد الرحمان الصوفي سنة 350/960 بتأليف كتاب « الكواكب الثابتة » وجعله منجمه الخاص) .

فتقليدا للمسلمين كان الملك رجار الثاني حشد في بلاطه عددا وافرا من علماء العرب على رأسهم الشريف الإدريسي .
وتم أيام غليام الأول ترجمة كتاب البصريات (opitica) لبطليموس القلوذي من العربية الى اللاتينية وقد ضاع الأصل اليوناني . وقام بترجمته اوجين البلرمي (المشهور بالأمير) الذي كان يجيد اليونانية والعربية واللاتينية .

ومما يدل على مدى اطلاع الامبراطور فريدريك (594 ـ 649 / 1197 ـ 1250) على العلوم الاسلامية تلك المسائل المشكلة التي أرسلها الى الملك الكامل الأيوبي فاجاب عليها الشيخ علم الدين قيصر تعاسيف ، او المسائل التي ارسلها هذا الامبراطور أيضا الى ملك الموحدين عبد الواحد الرشيد فعرضت على علماء سبتة ورد عليها الفيلسوف الصوفي الإشبيلي عبد الحق ابن سبعين في رسالة « الأجوبة عن الأسئلة الصقلية » . وكان موضوعها يتعلق بتعاليم أرسطو وابن رشد وقضايا دينية ومسائل علمية مثل تربية النباتات وتصنيف اجناسها وكيفية نموها وطرائق تلقيحها .

ونذكر من بين البحاثين والمترجمين الذين استدعوا الى البلاط الملكي العالم الفيلسوف ميخائيل سكوتوس (M.Scothus) الذي سعى في نقل « كتاب الحياة » الى اللاتينية وهو للفلكي الأندلسي نورالدين البطروجي الذي يعرف عند الأوروباويين باسم ألبتراجيوس (Alpetragius) وقد عهد الامبراطور الى سكوتوس بترجمة شروح ابن رشد على كتب أرسطو .

وكان الامبراطور فريدريك هو الذي أشار على علم الفلسفة العربية واليهودية موسى الميموني ان يؤلف كتابه « دليل الحيارى » ولعل فريدريك هذا هو الذي امر بنقل كتاب « الشباب والملاح » للحكيم الرازي (المكنى جالينوس العرب) الى اللغة اللاتينية .

وقد زود الامبراطور مكتبة جامعة البلرمي التي أنشها سنة 1224/622 بمجموعة هائلة من المخطوطات العربية .
وجل هذه الرسائل والمخطوطات القيمة كانت من جملة ما ضاع مما أشرنا إليه صدر هذا البحث .

(15) كان العرب يطلقون عليه اسم « وليم الأمين » ، ملك صقلية من سنة 562 إلى سنة 595 / 1166 ـ 1198 .

(16) وقد كانت إيطاليا وصقلية ، قبل الغزو العربي ، مقاطعتين للامبراطورية البيزنطية من عهد جوستنيانوس (قيصر الشرق) (القرن السادس ميلادي) فشملتها الثقافة اليونانية وإن حافظتا على لغتها اللاتينية . وبعد مجيء النرمان عادتا لاتينيتا الوجهة وإن بقي فيهما التأثيرات الحضارية البيزنطية والإسلامية .

(17) أغسطوس هو أول إمبراطور روماني (توفي سنة 14 م) ، وورد إسمه هنا كناية لتعظيم ملوك بلرمو مثل وليم الثاني وفريدريك وابنه منفراد ، وقد كان الشعراء يلقبون به أمراءهم تعظيما لشأنهم .

(18) وقد كتب الرحالة الأندلسي ابن جبير متحدثا عن هذا الملك انه كان « كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله (...) وله الأطباء والمنجمون وهو كثير الإعتناء بهم والحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيبا او منجما اجتاز ببلده امر بامساكه وادرّ له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه . » (ابن جبير : « تذكرة الأخبار في اتفاقات الاسفار » ، طبع ببغداد ، 1937 ، ص 272)

وقد كان الطبيب إذ ذاك رجل حكمة جامعا للأدبيات والعلوم الماورائية وكثيرا ما كان يساعده في عمله منجم إذ كان التنجيم يعتبر فرعا من فروع الفلك له صلة وثيقة بالطب ، وكان من المعتقد ان للنجوم والأفلاك تأثيرا على حياة الانسان وصحته ومماته .

(19) ملك صقلية (665 ـ 760 / 1266 ـ 1258) وهو ابن غير شرعيّ لفريدريك الثاني .

(20) يحتوي سقف هذه الكابلة على مجموعة ضخمة من التصاوير هي اقدم اثرا من المنمنمات التي نجدها في المخطوطات العربيّة .
انظر ريتشار اتنغهاورن ، ص 42 ـ 44 (سامرا) ، وص 44 ـ 50 (الكابلا بلاتينا)

(21) توجد مخطوطتان منمنمتان تبحثان في الطبّ البيطري كتبهما احمد بن الحسن بن الأحنف تخصّان معالجة الخيل ، نسخت الأولى ببغداد سنة 606 / 1209 (دار الكتب المصرية (8 ف ، خليل آغا) ، ونسخت الثانية سنة 607 / 1210 في عين المكان (إسطنبول ، طوبقابو ، سليمانية ، فاتح 3609) . أنظر أتنغهاورن ، ص 97 ، 100 .

(22) وقد كان هذا الإمبراطور يقلد العرب في عاداتهم وملاهيهم مثل القنص بالبزاة وكان ولوعا بعلم الحيوانات فجمع أنواعا غريبة منها في حديقة متنقلة تتبعه في رحلاته ، وقد بعث له الملك الكامل الأيوبي فيلا أثار استغراب الإمبراطور وحاشيته على نحو ما استغرب أهل الشّام عندما أهدى هذا الإمبراطور دبّا أبيض للملك الأشرف أخ الكامل .

وقد جمع فريدريك كثيرا من المؤلفات العلمية عن الحيوانات ، ونعلم أن رسالة لابن سينا في علوم الطبيعة قد ترجمها ميخائيل سكوتوس في زمان هذا الإبراطور ، ويغلب الظنّ أنّ سكوتوس قام بهذه الترجمة بأمر فريدريك ، وترجم دانيال الكريموني رسالة عربية في البيزرة لولد هذا الإمبراطور ، الذي وصفه الشاعر الألماني ريلكة في إحدى قصائده كيف أملى رسالة في البيزرة وكيف كان يصرف أوقاته في تهذيب الباز الوحشي حتى أن قلبه كان يطير مع البزاة إذا خرجت للصّيد .
أنظر أناماري : الباز الأشهب ، ملاحظات في البيزرة في الشرق والغرب ، « فكروفنّ » ، 1964 ، عدد ، ص 23 ـ 43 .

(23) في عجائب المخلوقات للقزويني أن البازي لا يكون إلاّ أنثى وذكرها من نوع آخر من الحداة والشواهين ولهذا اختلفت أشكاله .
والبازي ضرب من الصّقور ويكنّى عند العرب بأبي الأشعث وأبي البهلول وأبي لاحق وهو من أشدّ الحيوانات تبكرا وأضيقها خلقا ، ويضرب به المثل في نهاية الشّرف كما في قول الشّاعر :

إذا ما اعتزّ ذو علم بمال ... فعلم الفقه أولى باعتزاز
وكم طيب يفوح ولا كمسك ... ولا طير يطير ولا كبازي

(24) اعتنى س. س. استيبنان بتصويرها بأكملها ونشرها في كتاب طبع سنة 1965 .
أنظر
Sebastian Cirac Estopânan : «SKylitzes Matrinesis I. Repproducciones y miniatures»,Barcelone, Madrid, 1965

(25) وهذا التركيبالتصويري الذي يقوم على التناظر متأت من الفن الفارسي القديم ، وتدعى شجرة الحياة (التي تحتل محور التركيب) « الهاء » ، وهي كلمة فارسية الأصل ومعناها الغراب،والغراب في العقيدة الفارسية القديمة يمثل إلاه الحياة ، فسميت الشجرة التي يسكنها الغراب بالهاء (أي شجرة الحياة) نسبة الى هذا الطير الاه الحياة . والحيوانان المتقابلان على جنبي الشجرة يمثلان عند اهل فارس القدامى عالم المادة وعالم الروح .

أنظر :

DIB (M) : L'arbre , élément d'une symbolique, in «Algéria» imprim. Heintz, Alger, 1948, pp. 27 — 32.

(26) وأقدم ما عثر عليه من المخطوطات المُرقّشة مصحف دبلن الذي كتب في سوريا سنة 288 / 900 وهو يحمل في الصفحة الأولى رسم غرّة (مكتبة شستر بيتي (chester Beatty Library) (Ms. 1406))

(27) ريتشار انتغهاوزن ، ص 175 .

(28) ويمكن أن نشاهد مدى تأثير الزخرف الإسلامي المجرّد في رسوم بعض الفنانين المشاهير في عصر النّهضة ، فقد ألّف الرسّام الايطالي فرنشسكو دي پليجرينو (Francesco di Pellegrino) (توفي بفرنسا سنة 960 / 1552) كتابا جعل فيه مقارنة بين الرقش العربي والزخارف الإيطالية وأبرز فيه الأهميّة التي كانت تحتلها الأشكال المجرّدة الإسلامية لدى الأواسط الفنيّة ، ونرى مثلا أنّ التراكيب التي على شكل الغرة في واجهة المصحف الذي نسخ ببلنسيّة في القرن السادس / XII (مكتبة جامعة اسطنبول (م س أ 6754) هي التي اوحت الى ليونردو دي فنشي أشكال الغرر التي تجدها في بعض كراساته .

(29) سان جريجوار دي نازيونس (S^t Grégoire de Naziance) (القرن الرابع بعد المسيح) من رجال الكنيسة الإغريقيّة ، أسقف القسطنطينيّة ، ألف رسائل وأشعارا وخمسة وأربعين خطبة تمتاز بأسلوبها الخلاب .